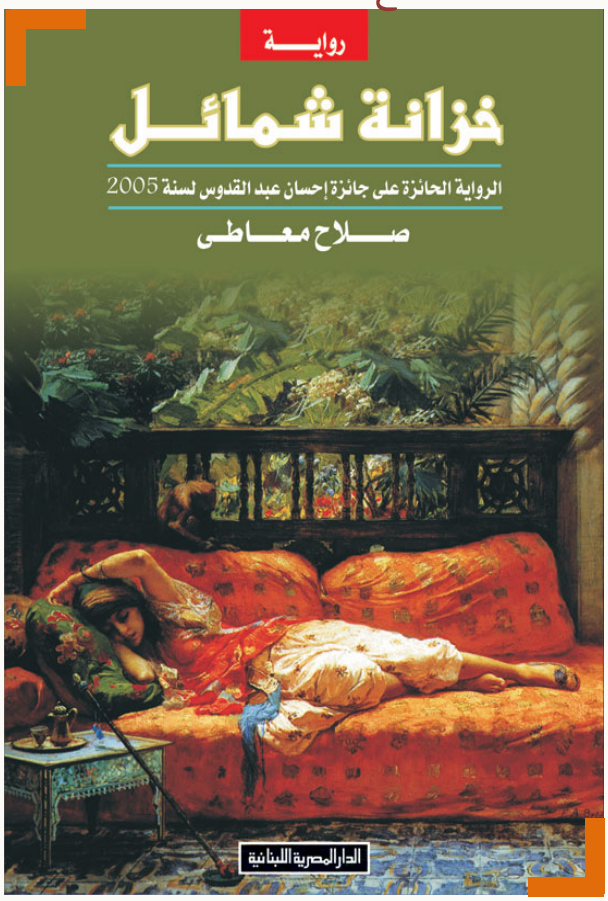

الرؤية التاريخية عند صلاح معاطي
"رواية خزانة شمائل نموذجًا"

أ. د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة الباحة – السعودية
جامعة لاهاي الدولية – هولندا

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فتحي عبد العزيز محمد، الرؤية التاريخية عند صلاح معاطي: رواية خزانة شمائل نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ٥٦ – ٦٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

من منطلق أن الرواية التاريخية هي قراءة إبداعية للتاريخ، تتناول صفحات هذا المقال الرؤية التاريخية عند الكاتب والأديب المصري صلاح معاطي، وذلك من خلال روايته "خزانة شمائل" الحائزة على جائزة إحسان عبد القدوس لسنة ٢٠٠٥. حيث تدور أحداث رواية خزانة شمائل في زمن رزحت فيه مصر والشام تحت حكم دولة المماليك البرجية (١٣٨٢ – ١٥١٧م) وهي فترة تاريخية ثرية بالأحداث.

مقدمة

يبدو منطقيًا أن أحداثًا عديدة جرت في الماضي وتتواصل نتائجها في الحاضر، وأن التاريخ هو ما نعرفه بشكل تام من تلك الأحداث الماضية، وأن ما نجهل منها لازال بعيدًا عن كونه تاريخًا على الرغم من حدوثه. ويبدو منطقيًا أيضًا ذلك السعي لمعرفة ما نجهل من أحداث الماضي بما يتوفر لدينا من وسائل معرفية للكشف عن وجه ذلك الماضي في مسيرة التقدم الإنساني، وينسحب ذلك القول بشكل أو بآخر على ما نعرف، فما نعرفه يمكننا من إعادة صياغة جديدة للتاريخ، وتلك وظيفة المؤرخ بما يمتلك من أدوات ومناهج تمكنه من ذلك.

كاتب الرواية التاريخية

وإذا كان التاريخ - أي المعروف لنا من ماضي الإنسان - في مسيرته الطويلة عبر الزمن زاخرًا بالأحداث والأزمات، فإن الاقتراب منه يستلزم رؤية موضوعية من المؤرخ ومقدرة على النقد والتحليل من خلال مصادر ووثائق تتعلق بالفترة التاريخية التي يعمل على تفسير أسباب ما تم فيها من ظاهرة تاريخية ما (كظاهرة الحروب الصليبية أو الغزو المغولي)، واستخلاص النتائج الناجمة عن تلك الظاهرة واستجلاء العبرة منها.

أما الأديب الذي يقدم لنا رواية تاريخية فهو مطالب بصورة أو بأخري عند الاقتراب من نفس الظاهرة أن يبتكر عملاً مشوقًا يعتمد على الحقيقة التاريخية وله حرية التخيل، ولكنه لا يمكنه الانفلات من روح تلك الفترة التاريخية، بل له أن ينغمس في أعماقها ليعود لنا بشخوص تمثل تلك الفترة بصدق معبرًا عن روحها، راصدًا لقيمها، ولا يتأتى له ذلك من غير قراءة ما كتب عنها في مظانها الأولي أي مصادرها ووثائقها، كذلك ما كشفت عنه الدراسات التاريخية الحديثة ليعيد لنا صياغة ما كان بقراءة جديدة ورؤية تمثل من خلال الإبداع المعتمد على الماضي رسالة تحمل قيمتها من زخم التاريخ. وأيا ما كانت تلك الرسالة، فهي بغير شك ما يحفل به المؤرخ والمتلقي معًا، وهي عندهما القيمة الحقة لرؤية كاتب الرواية التاريخية.

رواية التاريخ

والواقع أن هناك علاقة جدلية بين رواية التاريخ والرواية التاريخية حيث يصعب - كما يري الدكتور جمال محمود حجر-

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الفصل بينهما إلا من زاوية واحدة هي أن التاريخ هو رواية الماضي، بينما القصة أو الرواية التاريخية هي نوع من الإبداع أو التأليف المعتمد على شيء من رصيد ذلك الماضي، بمعني أنه بقدر ما يكون الكاتب قريبًا من حقائق الماضي يكون قريبًا من التاريخ، وبقدر ما يكون قريبًا من الخيال يكون قريبًا من الرواية.[١] وإن كنت اختلف معه إلى حد ما في القول بأن ما نكتبه في الحالين هو نوع من القصص، حيث تستلزم الكتابة التاريخية من صاحبها قدرة على التخيل لكنها لا تتطلب منه الانجراف بخياله بعيدًا عما توفره له المصادر والوثائق من حقائق يستطيع استجلائها بأدوات لا يستلزم للروائي مثلها، وهو أي المؤرخ لا يلزمه عنصر التشويق والإثارة، أو الأسلوب الأدبي المتكلف، فالحقيقة التاريخية تفرض نفسها بموضوعية وبلا تأنق.

وأيًا ما كان الأمر؛ تبقي القيمة الحقة لكل من رواية التاريخ والرواية التاريخية، فقيمة المؤرخ تكمن في موضوعيته وبحثه عن الحقيقة واستجلاء طبيعة الحدث في سياقه التاريخي، كما أن الأديب من خلال النص الأدبي يعيننا على فهم التاريخ وحركته والإفادة منه، إن النص الأدبي بما فيه من دلالة فنيه يمكنه أن يضيف إلى وعي الجماهير قوى جوهرية هي قوى (الأثر) التي تتحكم في المواقف.[٢] وفي رأيي أن تلك الإضافة التي يحدثها النص الأدبي لا تتأتي لكاتب النص إن لم تكن رؤيته للتاريخ رؤية واعية قادرة على التفسير والتأثير لتعطي المتلقي سببًا حقيقيًا، وإجابة واضحة حول لماذا أعادنا الكاتب إلى التاريخ ؟.

والرواية التي بين أيدينا كونها رواية تاريخية بكل المقاييس هي إضافة جديدة وجيدة لمثل ذلك النوع من الأدب، ولسنا هنا في معرض التأريخ للرواية التاريخية والتي ظهرت في الغرب على يد والتر سكوت، والتي مثلت استمرارًا مباشرًا لرواية القرن الثامن عشر الواقعية الاجتماعية،[٣] بينما كان رائدها في العالم العربي - مهما كان تحفظنا عليه- هو جورجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤)، وها نحن في القرن الحادي والعشرون وبعد عديد من الكتابات الروائية التاريخية للأدباء العرب أمثال: علي أحمد باكثير (١٩١٠ – ١٩٦٩)، ونجيب محفوظ (١٩١١ - ٢٠٠٦)، نجد رواية حقيق علينا أن نحفل بها لما تقدمه من رؤية صادقة عبر شخوص يمثلون الاتجاهات الاجتماعية، والقوي التاريخية في حقبة زمنية لا تزال وستظل في مخزون الذاكرة العربية.

رواية خزانة شمائل

تدور أحداث رواية خزانة شمائل للروائي صلاح معاطي في زمن رزحت فيه مصر والشام تحت حكم المماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) وهي فترة تاريخية ثرية بالأحداث، ولا ريب أن اختيار الكاتب لتلك الفترة لم يكن اعتباطيًا أو عشوائيًا، وقصد باختياره هذا أن يقدم لنا التاريخ برؤية معاصرة لفهم ما كان ولتلمس ما سيكون. وقد اتفق مع القول بأن لجوء مؤلف ما إلى التاريخ ليكون موطنًا لشخوص وأحداث روايته هو استلهام لأحداث مضت من أجل اسقاط على واقع معاش، حيث يختار من التاريخ حقبة تشبه حقبته المعاشة، ولا أقول تماثلها فالتاريخ لا يعيد نفسه كما قد يظن. ولقد فطن العرب قديمًا لذلك فهم يقولون ما أشبه الليلة بالبارحة، غير أننا هنا أمام عمل مستغرق في الماضي تمامًا، بحيث يأخذ الحاضر إلى عمق التاريخ وينغمس فيه بشكل تام، ونعشق ما يقدمه لنا الراوي من شخوص وأحداث تدفع بنا أو تحرضنا - وبحرفية مقصودة - إلى التوحد معها ومعايشتها كأنها حاضر نحياه، ونفيق مع توالي الأحداث على ما يدور حولنا في ذات الأمكنة بعد أن ذاب في داخلنا الزمن ماضيه وحاضره، ومع ذلك الإغراق في الماضي وتداخل الزمن ماضيه وحاضره لم يعد الكاتب بحاجة لإسقاطات معاصرة، بل تأتي من أعماقنا انعكاسًا لمعاناة الأبطال وأزماتهم على داخلنا، ولا يبقي لذلك الداخل إلا أن يثور ناطقًا ذاك ما نعانيه.

زمن ومكان الرواية

وكلما اقترب الكاتب من اختيار الحقبة الصحيحة تاريخيًا، كلما كان بعيدًا عن الحاجة للإسقاطات التي قد تأخذ بصاحبها إلى التصنع والتعمد في الاتيان بها، وهو ما فعله كاتبنا. وعليه يكون من الأفضل أن نعرض للأوضاع التي مرت بها مصر والشام زمن الرواية قبل أن نعرض لأحداثها وأبطالها.

فقد حكم المماليك مصر والشام أمدًا طويلاً وذلك منذ منتصف القرن الثالث عشر تقريبًا وحتى العام١٥١٧م، وقد قسم المؤرخون تلك الفترة إلى عصرين الأول عصر المماليك البحرية (١٢٥٠ – ١٣٨٢م)، والثاني عصر المماليك الجراكسة أو البرجية (١٣٨٢ – ١٥١٧م) نسبة إلى ثكناتهم (طباقهم)[٤] في أبراج القلعة، والمماليك هم رقيق كان الأيوبيون يلجئون لشرائهم وهم أطفال ويقومون على تربيتهم وإعدادهم ليكونوا حرسًا لهم، إلا أنه وفي مرحلة تالية (عصر المماليك الجراكسة) حدث تطور في نظام تربية المماليك أدي إلى ضعف النظام السياسي المملوكي. فقد تحول السلاطين والأمراء من شراء الأطفال إلى شراء البالغين أو من تعدوا سن البلوغ وأطلق عليهم المماليك الجلبان.[٥] وقد اختلف أولئك عن سابقهم من حيث العلاقة التي كانت تربطهم بأستاذهم، أو ببعضهم البعض، حيث قل الارتباط والاحترام بينهم وبين أستاذهم، وكذلك ضعفت رابطة الزمالة (الخشداشية)[٦] التي بين طوائف المماليك وقل انضباطهم، وزاد طغيانهم، وراحوا يعيثون في الأرض فسادًا من نهب الأسواق والبيوت وما إلى ذلك.

وقد كرههم أبناء الشعب كما رصدت الرواية بصدق ووعي بطبيعة المرحلة، حيث يذكر علاء الدين السيرافي- أحد شخوص الرواية- الفرق بين المماليك الذين تم شراؤهم أطفالاً ودورهم في خدمة النظام بشكل ملتزم والمماليك الجلب فيقول:

"أما أنا فاسمي علاء الدين السيرافي من جملة المماليك الذين حاربوا مع السلطان برقوق ضد أمرائه المارقين الذين كانوا يريدون التغلب عليه للوصول إلى كرسي السلطنة. أخمدنا الثورة ضده وقبضنا على المتآمرين. تربينا صغارًا في كنف السلطان

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

برقوق، تعلمنا في قصوره وثكناته لنكون فرسان السلطنة وجندها المخلصين، تعلمنا أيضًا أن الحق لا يضيع طالما من وراءه مَن يطلب به. وعندما تولي ابنه السلطان فرج السلطنة أبقي علينا.. وبدلاً من أن يكافئنا على ولائنا له راح يكافئ المماليك الجلب الذين جلبهم من أوربا والقوقاز والقفجاق ليعيثوا الفساد في الأرض.."

لقد قاست البلاد كثيرًا من أعمال المماليك الجراكسة من جراء عبثهم، ومن المنازعات المتواصلة بين طوائف المماليك، وما نجم عنها من حوادث وقتال في الشوارع، مما أفرز مناخًا سيئًا أساسه عدم الاستقرار والقلق وانعدام الأمن، وبدا ذلك بصفة خاصة في القاهرة عاصمة الدولة ومقر السلطنة.

وفي الفترة التي تدور فيها أحداث الرواية كان حاكم مصر هو السلطان فرج أكبر الأبناء الثلاثة للسلطان برقوق الذي توفي في القاهرة سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م دون أن تسنح له الفرصة لإظهار شجاعته في مواجهة القائد المغولي تيمور لنك وقواته، التي كانت تمثل خطرًا يهدد سلطنة المماليك. وإذا كان برقوق قد حظي باحترام من أرخو له من حيث الشجاعة والفروسية وحسن الرأي، فإن ابنه السلطان فرج جاء مخالفًا فهو سكير انغمس في الملذات رغم صغر سنه (تولي السلطنة في الثالثة عشرة من عمره)، وانشغل أيضًا في الدسائس والمكائد والصراعات الداخلية. فالسلطان سعيد بالقضاء على تمرد "تنم" نائبه على الشام والقضاء على مماليكه، واعتبر ذلك الحدث انتصارًا ما بعده انتصار تعلق من أجله الرايات وتشعل الشموع. ودعا لموكب يشرف فيه أبناء المحروسة بطلعته البهية، متغافلاً عما يهدد أمن البلاد من خطر خارجي وهو ما لمسه العامة واستهجنوه وفقا للرواية. وبدا ذلك في قول صالح الشهابي-أحد شخوص الرواية- وإعلانه أنه لن يشارك في احتفالات السلطنة بذلك الفوز والعدو على أبواب الشام.

ذلك عن زمن الرواية، أما عن مكانها فقد اختار المؤلف أن يبدأ من خزانة شمائل،(٧) وهي سجن من أعتي سجون القاهرة في ذلك الوقت. وصور لنا ذلك السجن في قتامة مفزعة منذ البداية، فالظلمة حالكة لا يتبين فيها القادم مَن بالداخل، والداخل إليه لا ينبغي له أن يفكر في الخروج منه، فهنا تكمن نهايته، عليه أن يعيش على ذكرياته عن العالم الآتي منه، ولا يملك حق الأمل في العودة إليه. ويعرض لنا عبر المكان صور مقززة للألم والتعذيب الذي يمارسه المماليك في حق مسجوني خزانة شمائل، والضوء الذي يهرب من الظلمة الحالكة رافضًا الدخول إلى عمق المكان.

ولكن الأحداث تزيدك إصرارًا على التعرف على مصير الشخصية الأولي وهو جمال الدين الجمدار الذي ضيع حذاء السلطان، حاول الهرب ففشل ليجد نفسه في مواجهة تهم عدة ولم يكن بمصدق أن مصيره السجن، ويشي ذلك بحال مصر في تلك الفترة رهينة قبضة مملوك أرعن. ويلتقي الجمدار في السجن بالمملوك شيخ المحمودي الذي أقسم أن يهدم خزانة شمائل إن خرج منها. وينتقل بنا القاص إلى أمكنة متعددة فهو يدلف إلى الأحياء الشعبية والأسواق التي تمثل حقيقة الحياة ومحورها "**في السوق كل شيء قابل للبيع والسوق هو العالم الذي تنصهر فيه كل مظاهر الحياة وتجتمع داخله النماذج البشرية من بائعين ودلالين ومتسولين ولصوص فليس للمرء قيمة تذكر حتى يضع قدمه في السوق ويبدأ النداء.. بين بائعي الطيور والدواجن إلى لوازم العمرة إلى صوت المحتسب وهو يشق طريقة مكتشفًا الغش والسرقة والتلاعب بالأسعار إلى المنادي الذي راح يعلن على الملأ خبر اخماد ثورة الأمير تنم ضد السلطان**" السوق هنا حياة كاملة.

كذلك يأخذنا إلى القصور، كما يعرج على المقابر، ونغادر معه إلى الشام وأماكن متنوعة هناك. وهو لا يتكلف في رسم ما رسم من صور زاهية أو قاتمة لتلك المواقع التي بدا عالمًا بخفاياها وما يجري فيها بحس تاريخي يجعلنا نشعر باللاغربة في السير في كل دروبها وكأننا عايشناها من قبل، ويبدو الحلم واقعًا ساحرًا في داخلنا نسير مع شخوص الرواية في كل موقع نتتبع بلا حرج أنفسنا معهم. ولن نتطرق إلى شخوص الرواية قبل العرض لأحداثها في ايجاز ليمكننا الحكم في التحليل الأخير على أبطالها.

أحداث وشخوص الرواية

تبدأ أحداث الرواية انطلاقًا من سجن خزانة شمائل سيئ السمعة، وقد دخله جلال الدين الجمدار اسكافي السلطان بسبب إضاعته مركوب السلطان، تهمة هينة، نصحه جمال الدين أصفر عينه الإستادار أن يبيت ليلته في تلك الخزانة حتى الصباح واعدًا إياه بالتدخل لدي السلطان وينتهي الأمر. لكنه فوجيء مع الصباح على اتهامات ملفقة تهال عليه، فهو سارق مجوهرات الأميرة سارة، بل هو متآمر يسعي لقتل السلطان. وتبدو الدراما في قمتها فقد تم ذلك كله في الوقت الذي كان ينتظر قدوم مولود من زوجته فاطمة، وهو ما يعد اسعد حدث في حياة أي زوجين، لكن شتان بين الحدثين الارتماء في جوف الخزانة والانسياب إلى الدنيا في ميلاد جديد.

تعرف الجمدار في السجن على المملوكين علاء الدين السيرافي وشيخ المحمودي الذي أقسم إن خرج من السجن لهدمنه. تمضي بنا الأحداث حيث تفقد زوجته والدها الذي مات كمدًا وحزنًا على اختفاء الجمدار. ولا يعني ذلك أنها لا تجد من يعينها فصالح الشهابي ابن البلد الشهم يقف بجانبها، ومع تزايد مضايقات المماليك الجلب لها وبلوغ الأمر حد التحرش بها تقرر فاطمة الذهاب للعيش مع أختها وزوجها وابنهما بالشام. لكنها تتعرض لحادث أشد مرارة فقد سرق النخاسة ابنها وهي على ظهر المركب وبيع الأبن في المحروسة اشتراه جمال الدين أصفر عينه ليربيه في بيته مع ابنته، وشعر الابن مع مضي الأيام والسنين برابطة تربطه بها. وفي حدث آخر يتمكن جلال الجمدار والمحمودي من الفرار من السجن وقد قتل السيرافي في تلك المحاولة. يغادر المحمودي إلى الشام بينما

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الجمدار يسعي في المحروسة للوصول إلى زوجته، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت بسبب عيون المماليك التي تترصده في كل مكان، إلا أنه يتمكن دومًا من الإفلات.

وبدا الراوي يصنع منه بطلاً شعبيًا فهكذا عرفه العامة قادر على الانسياب من بين قبضة مطارديه في اللحظة المناسبة. يظل يتنقل من مكان إلى آخر إلى أن اتخذ سبيله إلى الشام بعد علمه برحيل زوجته إلى هناك، يحدوه الأمل في لقائها وابنهما والأمل في البعد عن رقابة المماليك المتربصون به. وهناك يتستر في العمل في نفس مهنته، وتضيق عليه الدائرة مرة أخري فينضم إلى أحد الأمراء كمملوك وتدفع المنازعات بين الأمراء إلى أن يواجه الأب ابنه دون أن يدري في ساحة قتال، ويصارع ابنه ولكنه لا يصرعه، ويتعرف عليه ويعودان إلى المحروسة بعد أن علم بأن زوجته عادت إليها بعد فقد أختها لزوجها وابنها على ايدي المغول الذين عاثوا في الشام فسادًا وتقتيلاً.

ولا يقل الحال سوءً في مصر عن الحال في الشام، وإن اختلف المفسدون، فالمماليك وظلمهم والأمراء ومؤامراتهم، والسلطان وحياة الفسق، والفجور والغلاء وسوء الأحوال جو يدفع بالناس إلى اللحظة الحرجة لحظة إما الحياة وإما الموت، إما أن نكون أو لا نكون. وتفجرت مراجل الثورة في أرجاء المحروسة وقتل السلطان، واجتمع شمل العائلة جلال الدين وابنه بلقاء فاطمة، وذلك عند مشاركتهم في هدم الخزانة، وعملا على تحقيق ما وعد به شيخ المحمودي -الذي سرعان ما تولي حكم البلاد- لتكون الخزانة مسجدًا .. اجتمع شمل العائلة في لحظة الخلاص.. بدأ القاص بالخزانة معقل الظلم وانهي بالخزانة محراب العدل.

وعند الحديث عن شخوص الرواية، فإننا نرى كل شخص فيها بطل لها مهما قلت المساحة المعطاة له في أحداث ذلك النص الممتع، فكل شخصية يمكنها أن تحدث أثرًا في ذات المتلقي. لقد جاءت معظم شخصياته من قلب الشريحة الأكبر في المجتمع أي العامة بوعيها الفطري، وقدت من صلب التاريخ وسبكت في وهج الزمن. هي شخصيات في إطارها التاريخي تلمس فيها طبيعة الشخصية المصرية والشامية أو قل العربية التي تتسم بالنخوة والشهامة، تنفر من الظلم ولا تقبله كما تستنفر قواها في مواجهة العدو وراء الحاكم سواء قبلته أم رفضت مسلكه، وتؤازره بالمال عند الشدة أملاً في النصر وطلبًا له، فها هو الشهابي مرة أخري: **"كتب علينا أن ندفع نفقات الحروب من بطوننا .. يا رب انصر جيشك واهزم تيمور لنك ولا تمكنه منا حتى يكون ما دفعناه بفائدة"**.

كما تنقلب على الحاكم محاسبة له عندما يطفح بها الكيل، مما يدل على إدراكها لما يدور في فضاء الشريحة العليا من المجتمع أي رجال الحكم، وترفض موقف الحاكم الانهزامي الذي يخضع لشروط العدو المهينة بغير شك. وفيما يتعلق بالحاكم، فإننا أمام فتى مدلل، أعتلي سدة الحكم صغيرًا فلم يسلك مسلك الرجال، ولم يكن مقدرًا لحجم المسئولية الملقاة على عاتقه. فعلى الرغم من الخطر الخارجي المتمثل في المغول، وما يشيعونه في الأرض من إرهاب نجده يركز اهتمامه على صراعات داخلية بدلاً من أن يعالجها زادها تأججًا واشتعالاً، ناهيك عن معاقرته للخمر وشغفه بالنساء. وعندما تحمله الظروف على المواجهة نجده أكثر بعدًا عنها رغم إعلانه عن نصب الجاليش[٨] إيذانًا بدخوله الحرب التي تخاذل عن خوضها شأن حكام آخرين، وصورة التخاذل تلك هي أحد الأسباب التي دفعت بالناس إلى الثورة.

ونلمس من خلال تلك الشخصيات حجم المعاناة الاقتصادية التي مرت بها السلطنة وتجليها لنا أسواق مصر في ذلك العصر، كما نتبين الطموحات الاجتماعية التي تتطلع إليها سواء المماليك الذين يسعون إلى الترقي في سلك الوظائف، أم من لا يجد أمامه للوجاهة الاجتماعية سوي أن يكون مملوكًا، فعلاء الدين السيرافي، وهو مصري ابن مصري، كان والده يعمل في درب الأبارين، وكان صديقًا للسلطان لم يجد صعوبة عند وفاة والده أن يكون من المماليك السلطانية. وجلال الجمدار نفسه من المماليك السلطانية. ولا يفوتنا طموح تلك الفتاة التي تريد استغلال جمالها للوصول إلى حياة ناعمة مخملية فيمزقها خنجر السلطان الذي بهره جمالها شر ممزق بعد عجزه في مواجهتها، ويعرض الكاتب ذلك بشكل درامي مؤثر، فالخمر والأطايب لم تساعده على اثبات رجولته أمام دلال بنت صرق السقا الذي بهره جمالها لدي مرور موكبه ببيتها. ويبدو أن للفشل لدي السلطان أوجه متعددة. ولا يفوتنا أن نشير إلى طموحات ظن صرق أنها ستتحقق بزواج ابنته من السلطان ستنتشله من متاعب حرفته لكن الرجل بقي على حاله.

وإن كان جلال الدين الجمدار الشخصية المحورية لتلك الرواية، فإن من كانوا إلى جواره بدو بمثل حجمه سواءً في السجن، أو في فراره خارجه بالقاهرة، أو الفرار الأبعد بالشام، فهم يتفهمون قضيته التي هي قضيتهم ويساعدونه بوطنية لا مزايدة فيها تنبع من معاناة واحدة. وجلال الدين يمثل لنا أحد جوانب الشخصية المصرية أصدق تمثيل، فهو يثق بالحاكم ممثلاً في أستاذه أصفر عينه، ويطيعه عندما يطلب منه الانتظار حتي الصباح فسوف يخرجه من السجن بغير شك، لكنه اكتشف الخدعة التي تعرض لها، فرجل الأمن يكيل له التهم أملاً في كسب رضا السلطان، إن ضياع حذاء السلطان أشعل قريحة أصفر عينه رغم تفاهة الحدث، لما لا يكون جلال الدين الجمدار هو سارق الحذاء، ثم سارق المجوهرات الحد الأعلى تهمة (الخيانة العظمي) التآمر لقتل السلطان. وعندما سجن اصفر عينه وأوتي به إلى خزانة شمائل، لم يحاول ايذاءه وأبعد عنه ايدي من أرادوا الفتك به، روح السماحة في وقت المقدرة. وهو يسعي للفرار من السجن كمظلوم لا يجد من يسانده.

الحقيقة أن الرواية زاخرة بالشخصيات وأمكن للكاتب أن يجسد كل شخصية بتمايز مبينا واقعها الخاص بها، عارضًا أسلوبها في الكلام وطريقتها في التفكير، وبالتالي تفرد كل شخصية بخصائصها وتجسدها في اختلاف بين، ويعني ذلك أن الكاتب إلى جانب وصفه لشخصيات الرواية أراد أن يكمل لنا ذلك الوصف

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من خلال ما ينطقون (الحوار) فنتعرف بالتالي على طبيعة كل شخص على حدة، فإذا كان الحوار بين العامة التي تميزت بالشهامة والنخوة والإدراك الفطري للأحداث مطابقًا لحسهم العفوي، فإن ذلك أتاح لنا معرفة بساطة أولئك العامة. بينما أدركنا طبيعة شخصيات كبار المماليك وحكمها على الأحداث بشكل تحليلي قائم على معرفة أكبر بالحقائق وتبين موقفهم من تلك الأحداث.

وعن المرأة في الرواية، فنحن أمام أنواع ثلاثة من النساء، فالزوجة المحبة لزوجها الوفية له، المحافظة على شرفها تلك هي زوجة جلال الدين الجمدار والتي تحملت الكثير من مضايقات المماليك ومداهماتهم لكنها غادرت مصر عندما تعلق الأمر بشرفها ومحاولتهم التحرش بها، تفقد وحيدها لكنها لا تفقد الأمل في عودته إليها، ونراها تعالج الجرحي وتضمد جروحهم عندما فتك المغول بأهل الشام، إنها مثال رائع للمرأة ودورها في الأزمات. أما النوع الثاني فهو تلك الفتاة الطاهرة المحبة في عذرية لابن جلال الدين الجمدار والمخلصة له، أما النموذج الأخير فهو تلك المتدللة المتفجرة أنوثة "دلال" والتي لا ترى في قصر السلطان ما يطفئ شبقها إلا رجال السلطان لا السلطان نفسه، وهي تمثل البغي والفجور والخيانة. ولقد اختلف جزاء كل من النماذج الثلاثة، فالأولى تعثر على زوجها وابنها، والثانية توفق في قصة حبها، بينما تقتل الثالثة. لقد رسم لنا المؤلف في كل تلك الوجوه صور مختلفة للمرأة، ولا شك عندي أنها صور انسانية ستظل باقية ما بقيت الحياة، شخوص استطاع الكاتب أن يتلمس معدنها ولا تدري أيها عاش في الواقع التاريخي أو ابتكره المؤلف فهي شخوص بنت بيئتها.

الخلاصة:

نحن أمام رواية تاريخية اجتماعية بمعني الكلمة، اتخذت لنفسها مساحة من فضاء التاريخ، في فترة شهدت المنطقة العربية خلالها حكاما تخاذلوا في مواجهة أخطر وأشرس الهجمات عليها. كما شهدت صراعات بين الحكام ونوابهم، وانتشرت طوائف المماليك في مصر والشام سالبة ناهبة متصارعة هي الأخرى، مما أنتفي معه الأمن في البلاد، وتدهورت الأوضاع اقتصاديًا واجتماعيًا، كما انتشرت الأوبئة والأمراض، غير أننا قبالة ذلك نرى تماسكًا في أوساط العامة وترابطًا يجئ من احساسهم بالخطر والرغبة في التغيير.

والرواية مليئة بالأحداث متعددة الأشخاص، مما أثرى الرواية إلى حد بعيد ويجئ ذلك الثراء نتيجة توفيق الكاتب في اختيار زمن الرواية، حيث تتعدد الجوانب التي يمكن له العمل عليها سواءً كانت تلك الجوانب قاتمة كعتمة الليل، أو مشرقة كشمس منتصف النهار. ولم يجيء ذلك التعدد في الأحداث أو الشخوص مشتتًا له، بل أمكن له أن يحدد لنا ملامح كل شخصية خارجها وداخلها تعمل كل منها على كتابة سطور رسالة حملها لنا المؤلف، رسالة مليئة بالقيم التي يفتقدها بعضًا منا، هي بداخلنا بحكم تراثنا الأخلاقي، لكننا تركنا انفسنا نصدأ، وهو يجلو قشرة الصدأ لننتفض من أجل التغير واعتلاء صهوة الضوء بلا ضجيج. وليس لي أن أعرض لتلك الرسالة فالمتلقي أجدر مني بفك شفرتها.

ويبقي القول؛ أن تلك الرسالة بدا فيها الروائي صلاح معاطي سلسًا بلا تكلف، شيقًا بلا تصنع، يعي طبيعة المرحلة التي يعيشها وطبيعة المرحلة التي يحكي عنها، هو لا يعيد صياغة التاريخ بقدر ما يعيدنا لصياغة أنفسنا.

الهوامش:

(١) جمال محمود حماد: **بين الرواية التاريخية ورواية التاريخ**، جريدة الأهرام، السنة ١٣٣/ العدد ٤٤٦٨٧، ١٢ أبريل ٢٠٠٩.

(٢) مصطفي عبد الغني: **الاتجاه القومي في الرواية**، عالم المعرفة الكويت.

(٣) جورج لوكاش: **الرواية التاريخية**، ص ٢٩.

(٤) **الطباق**: مفردها طبقة وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد. وقد اهتم سلاطين المماليك بتربية مماليكهم وهم صغيري السن، وكانوا يعتبرون هؤلاء المماليك بمثابة عنصر الجيش المملوكي الذي كان ينقسم إلى: المماليك السلطانية، وأجناد الحلقة (وهم محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين)، ومماليك الأمراء (وهم شبه المماليك السلطانية غير أن هؤلاء تابعين مباشرة إلى الأمراء).

(٥) **الجلب**: هم المماليك الذين جلبوا حديثًا. انظر: محمد دهمان: **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دمشق ١٩٩٠، ص ٥٣. وهم أيضًا الجند الذين يشتريهم السلطان لنفسه.

(٦) **رابطة الخشداشية (أي الزمالة)**: كانت أقوى الروابط بين المماليك جميعًا، وتعني ما هنالك من عاطفة بين مجموعة من المماليك، نشئوا في كنف أستاذ واحد ونسبوا إليه - كالمماليك الأشرفية نسبة إلى الأشرف، أو الظاهرية نسبة إلى الظاهر، أو الصالحية نسبة إلى الصالح- وصاروا كالإخوة يربط بينهم أب واحد. انظر،
نظم الحكم والإدارة في عهد الأيوبيين والمماليك، ضمن **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية**، نسخة إلكترونية متاحة بموقع مكتبة الثقافة الإسلامية: (*http://books.islamww.com*)

(٧) **خزانة شمائل**: هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة، على يُسرة من دخل منه بجوار السور، عُرفت بالأمير علم الدين شمائل وإلى القاهرة في أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظراً، يُحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السرّاق وقطاع الطريق، ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة، وكان السجان بها يوظف عليه والي القاهرة شيئاً يحمله من المال له في كل يوم، وبلغ ذلك في أيام الناصر فرج مبلغاً كبيراً، وما زالت هذه الخزانة على ذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحموديّ في يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول، سنة ثمانمائة، وأدخلها في جملة ما هدمه من الدور التي عزم على عمارة أماكنها مدرسة.
وشمائل هذا: هو الأمير علم الدين، قدم إلى القاهرة وهو من فلاحي بعض قرى مدينة حماه في أيام الملك الكامل محمد بن العادل، فخدم جاندار في الركاب السلطاني إلى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط في سنة خمس وعشرة وستمائة، وملكوا البرّ وحصروا أهلها وحالوا بينهم وبين من يصل إليهم، فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه ويسبح في الماء بين المراكز ويردّ على السلطان الخبر، فتقدّم عند السلطان وحظي لديه حتى أقامه أمير جاندار، وجعله من أكبر أمرائه، ونصه سيف نقمته، وولاه ولاية القاهرة، فباشر ذلك إلى أن مات السلطان وقام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر، فلما خلع بأخيه الصالح نجم الدين أيوب نقم على شمائل. راجع:
المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، نسخة إلكترونية متاحة بموقع الوراق: (*www.alwarraq.com*)

(٨) **الجاليش**: علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، يرفع هذا العلم أربعين يومًا قبل الخروج للقتال، وذلك فوق مبني الطبل خانة، وهذا من التقاليد المملوكية. انظر، محمد دهمان: المرجع السابق، ص ٥٠.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449